السيرة الشعبية العربية : الجنسية، الحكائية والنصية
قراءة في مشروع سعيد يقطين-

الدكتورة: نجاة وسواس
المركز الجامعي تيسمسيلت- الجزائر

الملخص:
نُظِر للسيرة الشعبية في الثقافة العربية القديمة وحتى المتأخرة منها نسبيا على أنها تنتمي إلى باب السرد الذي قابلته هذه الثقافة بالإقصاء والتهميش لأسباب ثلاثة معروفة: اهتمام هذه الثقافة بالشعر دونه، وعاميته فهو وليد العامة ونتاج مخيلتها، وكذا إفراطها في التخييل الذي لم تكن تلك الثقافة توليه أي بعد في على الرغم من كونه نتاج مخيلة مخالفة. ولعل هذا السبب الأخير كان الأكثر دفعا إلى ذلك التهميش، إذ إن السيرة الشعبية وهي تحدث ذلك التمازج بين التاريخي والمتخيل في قالب سردي شعبي لجأ كثير من رواتها إلى ذلك البعد الخارق العجيب الذي لا يقبله العقل، في حين حظيت مثل هذه النصوص السيرية بإقبال ورواج بين العامة من الناس، فهي تعبر عنهم وبلغتهم البسيطة.
الكلمات المفتاحية: السيرة الشعبية العربية؛ الجنسية؛ الحكائية؛ النصية؛ سعيد يقطين.

تأسيس :

لم تحظ نصوص السيرة الشعبية –على عكس نصوص السرد العربي القديم الأخرى- باهتمام كبير في النقد العربي الحديث على الرغم من كونها من أخصب نصوصه، وإذا قارنا نصا كسيرة بني هلال مثلا من حيث القراءة والتحليل بنص ألف ليلة وليلة سيبدو جليا ذلك التهميش النسبي نقديا، على الرغم مما أثارته الهلالية من إشكالات. الأمر الذي يدفع إلى التساؤل عن سر عدم إقبال الناقد العربي الحديث على قراءة السير وبخاصة في ظل تعدد المناهج النقدية المقاربة للنص السردي، هل سببه الطول والحشو والإطناب الذي يميزها، أم لتداخلها مع التاريخ ؟.

إن الدراسات العربية القليلة التي قاربت السيرة الشعبية العربية حاولت الإلمام بهذا المتن، إذ إن معظمها قدمت قراءات للسير العربية العشر المحفوظة جملة واحدة على الرغم من ضخامة متنها، وكأنها سعت إلى البحث عن الملامح المشتركة بينها ومن ثم تقديم نموذج مشترك لتحليلها جميعا، على الرغم من أن الإجراءات التي قوربت بها لبناء هذا النموذج نابعة من خلفيات نقدية غربية وليس من السيرة نفسها.

تقتضي قراءة بنيات نص يمتاز بالضخامة والتعدد كالسير الشعبية الوقوفَ على مسائل وقضايا متعددة كونها نصا مفتوحا على سياقات وأبعاد مختلفة، لذلك يبدو أن الإمساك بمكونات هذه البنية والبحث عن نموذج موحد يمكن أن تُقرأ من خلاله نصوصها يقع في منطقة تماس تتجاذبها ثلاث خلفيات أساسية: التاريخية، الملحمية والفنية الجمالية .

يندرج مشروع سعيد يقطين في قراءته للسيرة الشعبية والبحث في بنياتها الحكائية ضمن المشاريع النقدية التي تؤسس لنفسها مسارا معينا لا يعود مباشرة إلى النص، وإنما يفتح لنفسه أبوابا أخرى إلى هذا النص، فجاء هذا المسار/ المشروع بشكل تدريجي، بدأه الناقد بالاختيار الذي يحاكي التحقيق في مؤلف نقدي

منفرد[1]، ثم التأسيس النظري للنوع والمنهج المراد العمل عليه وبه في هذا المشروع[2]، ثم الملامسة والممارسة الفعلية للتحليل النصي[3].

- **التأسيس النوعي والنصي للسيرة الشعبية :**

إن ما يستوقف قارئ كتاب "الكلام والخبر" –بداية- القاعدة التي يستند إليها سعيد يقطين لدراسة السيرة الشعبية، حيث يتجاوز مفاهيم ومسائل متعددة كمفهوم التراث وانتماء السيرة الشعبية النوعي (رسمي أم شعبي)، وفي مقابل هذا التجاوز يستند إلى مفاهيم أخرى قديمة /حديثة في الآن ذاته، كمفهوم النص (واللانص كمقابل له) والخبر والكلام. ويضع يقطين مسألة الاهتمام والتهميش قاعدة للتمييز بين النص واللانص، ومن هنا تندرج كثير من الأخبار والمرويات السردية القديمة تحت طائلة اللانص نظرا لتهميشها في الثقافة الرسمية العربية القديمة قبل تحولها إلى نص، وفي مقدمة هذه الأشكال السردية السيرة الشعبية[4].

القاعدة الأخرى التي استند إليها سعيد يقطين كانت حول الكلام العربي، وهو المفهوم الذي استعاض به عن مفاهيم أخرى، الذي أصّل له في ماهيته وأجناسه وأنواعه وأوصافه انطلاقا من مصنفات عربية قديمة[5]. وبالاستناد إليها أيضا سعى إلى تقديم تصور "متكامل" حول هذا الكلام وتشكيلاته الجنسية والنوعية والنمطية. على أنه استثمر في بناء هذا التصور كثيرا من طروحات "جيرار جينات" الخاصة بالقوانين العامة التي تحكم النصوص الأدبية وحدودها وعلاقاتها، وتحديدا تلك التي تضمنها مؤلفاه "مدخل إلى جامع النص" (introduction a l'architexte) و"أطراس" (palimpsestes). ففيما يخص الجنسية ، يربط الأجناس بالمبادئ الثابتة كون الجنس يتميز بالثبات، في حين ترتبط الأنواع بمقولة التحول نظرا لأن كل جنس يتضمن أنواعا يمكن لبنياتها أن تتحول، رابطا أخيرا الأنماط التي تمثل الحالات التي يمكن أن تؤول إليها الأنواع عبر تطورها التاريخي بمقولة التغير، ومن هنا تتمايز مختلف التجليات النصية وفق المقولات ثلاث: الثبات، التحول والتغير[6]. والغاية من هذه التحديدات الكلامية محاولة وضع أطر معينة لدراسة السيرة الشعبية في انتقالها من اللانص إلى النص أو إلى النوع المعترف به في دائرة الثقافة العربية، أو بعبارة أخرى "محاولة البحث في جنسية النص ونصية الجنس"[7].

أثار -من ناحية أخرى- التأسيس النظري الذي قدّمه سعيد يقطين حول النص والكلام العربي بعض الآراء العربية هنا وهناك، بين متحمس له وآخر يختلف معه. وأبرز قراءتين قُدّمتا حول مشروع سعيد يقطين هما قراءة شرف الدين ماجدولين "سعيد يقطين : التراث السردي، النص والنص الثقافي" التي تضمنها كتابه "ترويض الحكاية "، حيث يرى ماجدولين أن هذه القراءة ليس لها نظير، وأنها من "أخطر"* التحليلات المقدمة حول السرد العربي القديم كونها تستند إلى نص متعدد المرجعيات. وتبدو أهمية دراسة يقطين من وجهة نظر ماجدولين في كونها انطوت وقدمت مفهوما للنص يحيل إلى وعي جذري بأبعاده النظرية ودلالاته المعرفية انطلاقا من التراث العربي. وتبدو أيضا جدية طرح يقطين من خلال الانتقال من العينة الكبرى إلى الجزئية أي من النص إلى الكلام، ما يجعل النصية خاصية يمكن من خلالها تجاوز كثير من الأحكام والتصنيفات المعيارية للتمظهرات الكلامية. ويسهب ما جدولين في تحليل هذا المشروع ليصل إلى أن التأسيس النظري الذي تضمنه "الكلام والخبر" :

- مقدمة لفهم السرد العربي و محاولة تسعى للإجابة عن إشكاليات كانت عالقة حول السردية العربية القديمة و السرديات .
- أسبقية يقطين حديثا في بناء نموذج أجناسي في علاقته بالنص و النسق الثقافي .
- ليقدم يقطين أخيرا من خلال الكلام و الخبر تصورا منسجما أمكنه من تحليل السيرة الشعبية، ما يجعله علامة –الدراسة- في النقد المعاصر[8].

وفي مقابل هذا الموقف قراءة أخرى تنحو منحى سلبيا نوعا ما تجاهها هي قراءة عبد الله أبو الهيف، الذي أخذ على يقطين بعض الآراء والمسائل التي رأى أنها تشوب هذا العمل، يمكن إجمالها في :

- الاستنقاص والتهوين من جهود سابقة مقدمة حول السيرة الشعبية الذي رأى أن يقطين أبداه .
- إن ما قدمه يقطين حول النص والكلام العربي مسبوق فهو لم يأت بجديد حولهما .
- القاعدة التي ينطلق منها يقطين لا تتأسس على النص والنص الثقافي بل على النظرية الغربية ممثلة تحديدا في السرديات[9].

والحقيقة أن حديث أبو الهيف بدا متضاربا نوعا ما، فمرة يصف جهد يقطين بأنه ريادي ونافع، وأخرى يراه مسبوقا وغير ذي بال وأن كثيرا منه كان يجدر الاستغناء عنه لأنه لا يقدم إضافة عن سابقاته من الدراسات العربية. وما ينبغي الإشارة إليه من ناحية أخرى أن سعيد يقطين قدم وطرح الدراسات السابقة للسيرة الشعبية تحديدا طرحا علميا لا صورة للانتقاص أو التمجيد فيه لأي دراسة منها، بل وسمها بالدراسات القاعدية في قراءة السيرة الشعبية كونها كانت قد تصدت للحملة الاستشراقية من خلال إضفائها الطابع الشرعي على الأنواع الشعبية.

- **السيرة الشعبية من اللانص إلى النص:**

ولئن كان سعيد يقطين -من ناحية أخرى- في الكلام والخبر قد أسس للنوع والنص (السيرة الشعبية)، فإنه في تأطيره لـ"قال الراوي" يؤسس للمنهج الذي يعتمده في قراءته، مجسدا في "سرديات القصة"، ولعل أول ما أسس له هو تلك النقلة التي أحدثها من الخاص إلى العام أو من "الجنسية إلى الحكائية"، وهي المفهوم الخاص الذي اقترحه يقطين لدراسة السيرة في مقابل الجنسية (générique) العام، ودلالة الحكائية حسب يقطين تتحدد في كونها "المقولة الجنسية الخاصة بجنس السرد .. ووفق هذا التحديد تعتبر الحكائية هي الطابع العام الذي تشترك فيه مختلف الأنواع التي تندرج ضمن السرد، إنها العنصر الثابت الذي ينظم أي كلام يوسم بميسمها، ويلحقه بدائرة جنس السرد بغض النظر عن الزمان والمكان"[10]. وتحقق هذه الحكائية يكون من خلال مجموعة من العناصر هي الحدث القابل للحكي والتطور وفاعله والزمان والمكان اللذين يحدث في إطارهما. مما يعني أن يقطين غيّر مساره النقدي في قال الراوي إلى سرديات القصة (مادة الحكي) بعدما اعتمد سرديات الخطاب والسوسيوسرديات في دراساته السابقة، لذلك يعتمد مصطلح الحكائية كمقابل لـ narrativité، على أن الغرض من هذا الاعتماد هو رفع اللبس الذي يعتري مصطلح narrativité كونه ينتمي إلى مجال مشترك تتنازع فيه السيميائة السردية والسرديات .

ينظر سعيد يقطين للسيرة الشعبية من وجهتين اثنتين، أولاهما كونها تجسد كنوع بنية حكائية كبرى قابلة للاختزال والتمفصل إلى بنيات حكائية صغرى تتمثل في السير الشعبية (كمتون)، وهي الوجهة الثانية، وهذه الأخيرة تتمفصل بدورها إلى بنيات أصغر يمكن من خلالها تحديد ملامح وخصائص البنية الكبرى أو النوع كاملا . و ينطلق يقطين في تحديد هذه الخطاطة من فكرة مفادها أن الحكي في كل سيرة شعبية بل في كل نص سردي ينطلق مما يسميه "الوظيفة المركزية" وهي الحافز الذي يقوم عليه فعل الحكي ويدفع الراوي إليه، وهذه الوظيفة حسبه تمثل مركز جذب و توجيه لكل الأحداث التي تقع ضمن سيرة ما، لأنها ستظل جميعا مشدودة إليها ، وستظل موجهة لها جميعا. وإذا كانت هذه الوظيفة تمثل مرحلة أولية من السيرة فإن فعل الحكي في استمراريته سينتج مجموعة من الوظائف الأخرى لها علاقة بالوظيفة المركزية، بل إنها ستعمل على تحقيقها و تحديدها، ويسمي يقطين هذه الوظائف بالأساسية و يحددها في: الأوان – القرار – النفاذ[11] .

يبدو أن هذا المسار الوظائفي الذي قدمه يقطين لا ينأى كثيرا عما قدمه فاروق خورشيد عن البناء الفني للسيرة الشعبية وتلك المراحل التي أحصاها فيها، وإذا كان تأسيس خورشيد يقوم على شخصية البطل ومسارها الذي وفقه يتحدد هذا البناء، فإن يقطين يستند إلى مرجعية أجنبية فهو يقارب إلى حد ما تفصيل رولان بارث (R.Barthes) بين الوظائف الأساسية والوظائف الوسيطية، ليخلص هو إلى الوظيفة المركزية التي تبدأ بالاختزال إلى وظائف أخرى التي تظل جميعها متعلقة بهذا البطل وأفعاله، لذلك وجه الاختلاف لا يبدو واسعا[12] .

قدّم سعيد يقطين في "قال الراوي" تحليلا لمختلف بنيات السيرة الشعبية العربية (الزمن، الشخصية، الفضاء) ولئن كان الناقد لا يلتزم بالمرجعية الواحدة للتحليل، إلا أنه حاول الإلمام -من خلال هذا التعدد المرجعي في التحليل- بمختلف الدلالات والأبعاد التي يمكن أن تحملها بنية معينة. على أنه ينبغي الإشارة إلى أن يقطين أثار عدة مسائل وقضايا لم تثرها تلك الدراسات العربية التي وصفها أصحابها بالبنيوية .

ففي بنية الزمن مثلا حصر سعيد يقطين البنية الزمنية الكبرى في الفترة التاريخية (زمن القصة) التي حدثت فيها هذه السير والممتدة من ما قبل الإسلام (الجاهلية) إلى العصر المملوكي، على أن أول سيرة هي سيرة الزير سالم وآخرها هي سيرة الظاهر بيبرس التي تستمر حتى القرن الثامن عشر. أما عن البنيات الزمنية الصغرى فقد تحدث عن العلاقات التي يمكن أن تربط بين البنيات المختلفة وتتمثل هذه العلاقات في الثلاث التي حدد تزفيطان تودورف (T.Toddorov) اثنين منها وهما التسلسل (enchainement) والتضمين (enchâssement)، أما الثالثة وهي التأطير (encadrement) فهي من تصنيف توماشفسكي[13] .

والحديث عن الزمن في السير الشعبية العربية ضئيل في الدراسات العربية السابقة نظرا لكونها اهتمت في معظمها بعلاقة هذه السير بالتاريخ، إذا ما استثنينا دراسة فاروق خورشيد السابقة الذكر "أضواء على السير الشعبية" التي تحدث فيها عن الترتيب التاريخي للسير الشعبية، وحتى تحديده للمراحل الخمس التي تشكل جسد السيرة كان تحديدا زمنيا يتوقف على استمرارية حياة البطل في الزمن، إذ إن كل مرحلة منها

تمثل مرحلة من حياته[14]. على أن معظم الدراسات العربية الأخرى لم تهتم بالزمن إلا من هذه الوجهة كما هو حال دراسات عبد الحميد يونس ونبيلة إبراهيم أو محمد رجب النجار الذي لم يتعد حدود التموقع والتحديد التاريخي لها كما فعل مع سيرة فيروز شاه أو حمزة البهلوان [15].

أما الدراسات البنيوية الحديثة التي تأتي في مقدمتها موسوعة السرد العربي-وقبلها السردية العربية- لعبد الله إبراهيم فلا نكاد نلحظ اهتماما بهذا المكون السردي إلا في حديثه عن وظيفة من وظائف الراوي وهي التوزيع التي يضطلع فيها بتوزيع الأحداث وترتيبها سرديا وفق زمنية معينة [16].

ترسم "قال الراوي" لنفسها مسارا نقديا يتحدد في سرديات القصة، إلا أن صاحبها لا يتوانى أحيانا عن الحياد عما يفرضه هذا التوجه والاستعانة –في ظل قصور هذا المنهج من ناحية ببعض الإجراءات، وما تفرضه حكائية السيرة الشعبية من ناحية أخرى، فيخرج يقطين بهذا عن إطار سرديات القصة إلى سرديات الخطاب أو سرديات النص معا في سبيل إيجاد النموذج البنوي الذي يجمع بين السير العشر معا، ينتج منها جميعا ويسقط عليها جميعا .

ولئن وصفت بعض الآراء -التي تقول بالمكاشفة الفعلية- كتاب "قال الراوي"بالقراءة السيميائية مع بعض التحفظ، كون هذا العمل جهد تجتمع فيه جهود فردية وجماعية إضافة إلى اجتهادات سعيد يقطين نفسه[17]، إلا أن يقطين نفسه لم يشر إلى أن دراسته دراسة سيميائية بحتة، بل أبرز أن العمل السيميائي (السيميائي) ظل محدودا ونسبيا، كون أصحابه حصروا أنفسهم مع نصوص خاصة وانطلقوا من بعض الافتراضات السابقة عنها، لذلك جاء عمله موسعا غايته الحكائية. فهو يضع عنوانا لتنوير فيه تحت صيغة "السيميوطيقا والسرديات الحكائية" ولو كان الاتجاهان متماثلين لما فصل بينهما، لذلك يبدو أن سعيد يقطين يميل قليلا إلى تلك الدراسات التي حاولت التوسيع من البحث في الحكائية، من خلال تجاوزها التركيبَ والدلالة إلى أبعاد تلفظية دلالية تعطي البحث فيها سمات وأبعاد جديدة، ولهذا تجده يميل إلى أبحاث كورتيس (J.Courtés) أو جين كوكوردا (J.Petito Cocora) .

بهذا الكيف تبدو "قال الراوي" من أبرز الدراسات العربية التي سعت سعيا جادا إلى البحث في خصوصية متن السيرة الشعبية انطلاقا من بنياتها الحكائية، يستشعر قارئها مدى الملامسة الحية والمعايشة الطويلة للنص السيري الشعبي، إذ إن الإمساك بهذه البنيات أمر لا يخلو من صعوبة ويحتاج إلى مثل هذه المعايشة على الرغم من ضخامة نصوصها، ويراعى فيها –الدراسة- النظرية ومقتضيات النص وسياقاته الثقافية وما يمكن أن تضيفه على النص وما يمكن أن يعدله الناقد فيها –النظرية- انطلاقا من اجتهاداته الخاصة ومن تلك المقتضيات، ولعلّ هذا ما ميز "قال الراوي" فعلا .

في ثنايا هذه التعديلات، يحاول يقطين أن يرسم تصوره الخاص الذي استقاه من مشارب عديدة، محاولا إقامة شيء من التناسج والألفة بينها مع تعديل ما يمكن تعديله على الرغم من بعض الإقصاء الذي أبداه يقطين تجاه بعض الدراسات العربية التي يمكن الإفادة منها، ولو أنّها لا تقدّم الشّيء الكثير الذي قد يسهم في البحث عن الحكائية كونها توقفت عند حدود معينة ولم تتجاوزها، في حين أبدى يقطين اهتمامه بشيء منها إلا أنه دعا إلى تجاوزها إلى البحث في البنية إذ إنها قد تعيقه .

لا يمكن وصف "قال الراوي" بالعمل الشامل أو المتكامل لكونه اشتغل على السير العربية العشر وحدد بنياتها ومختلف العلاقات التي تجمعها، وقد أقر يقطين نفسه بهذا في الأخير، بل وفتح آفاقا جديدة لهذا البحث يسعى فيها إلى الإجابة عن بعض الإشكالات التي لا تزال قائمة، وتحديدا تلك المتعلقة بلغة السيرة وتفاعلاتها النصية مع أنواع أخرى تحققت في الثقافة العربية والإسلامية. إلا أنه أجاب عن كثير من الأسئلة الملامسة لهذا النوع الشعبي في ظلّ قصور بعض الدراسات العربية الأخرى عن هذا لأسباب قد تبدو إلى حد ما واهية على نحو كونه عملا شعبيا ومن ثم اهتمامها بنصوص أخرى، أو الطول الذي يميزها. لذلك تأتي "قال الراوي" في مقدمة الدراسات المهتمة بالسيرة الشعبية التي أفادت –ولا تزال- منها كثير من الدراسات وبخاصة الأكاديمية .

الهوامش:

[1] وهو ما قام به يقطين في ذخيرة العجائب العربية ، وهو مصنف جمع فيه كل العجائب والخوارق التي حدثت في سيرة سيف بن ذي يزن، حيث قام يقطين برصدها وكأنها مستقلة عن بعضها، وفي الآن ذاته حاول ربط علاقات بينها، ورتبها ترتيبا ألفبائيا، وصنفها ضمن خمس خانات : عجائب الفضاءات – عجائب الشخصيات – عجائب الأدوات -عجائب أفعال المادات – عجائب النباتات . ينظر، سعيد يقطين، ذخيرة العجائب العربية ، سيف بن ذي يزن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1994 .

[2] و هذا ضمن: الكلام و الخبر، مقدمة للسرد العربي . م س .

[3] وهذا في كتابه: قال الراوي ، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية ، الذي نال عنه جائزة المغرب للكتاب عام 1997 .

[4] يستند يقطين في هذا إلى مؤلفين قديمين هما " كتاب القصاص والمذكرين" لابن الجوزي (م س) والبرهان لابن وهب الكاتب اللذين أثارا مسألة ذم الأخبار والقص عموما فيهما. ينظر، الكلام و الخبر، ص 59 و ما بعدها .

[5] ينظر، المرجع نفسه ، ص 15 .

[6] ينظر، المرجع نفسه، ص 178 و ما بعدها .

[7] المرجع نفسه، 187 ، و بهذا تتجلى المحاور التي عالج يقطين من خلالها الكلام العربي ثم السيرة الشعبية في ثلاث ثلاثيات : المبادئ –المقولات - التجليات / الجنس – النوع – النمط / القصة-الخطاب – النص .

[*] دون أن يحدد لنا مكمن هذه الخطورة .

[8] ينظر، شرف الدين ما جدولين، ترويض الحكاية ، بصدد قراءة التراث السردي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2007 ، ص 19 وما بعدها.

[9] ينظر، عبد الله أبو الهيف، النقد الأدبي العربي الجديد في القصة و الرواية والسرد، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000 ، ص 298 وما بعدها.

[10] سعيد يقطين ، قال الراوي ، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية ، ص 12 .

[11] ينظر، قال الراوي ، ص32 وما بعدها .

[12] ينظر، فاروق خورشيد ، الموروث الشعبي ، م س ، ص 144 و ما بعدها .

و : . R.Barthes , introduction à l'analyse structurale des récits , in poétique du récit , seuil , 1977, p 32 et au delà

[13] ينظر، قال الراوي ، ص 166 و ما بعدها .

[14] ينظر، فاروق خورشيد ، الموروث الشعبي ، ص 141 و ما بعدها .

[15] ينظر على سبيل التمثيل ، محمد رجب النجار، سيرة فيروز شاه أو الرواية الشعبية العربية للشاهمانة الفارسية ، مجلة عالم الفكر، مج 16، ع 1 ، 1985، عدد خاص بالملاحم ، ص 153 و ما بعدها .

[16] ينظر، موسوعة السرد العربي 1/ 262 .

[17] ينظر، سليمة لوكام ، ينظر تلقي السرديات في النقد المغاربي ، ، دار سحر للنشر، تونس ، 2009 ، ص352 .